أُسَامَةُ بْنِ زَيْدٍ

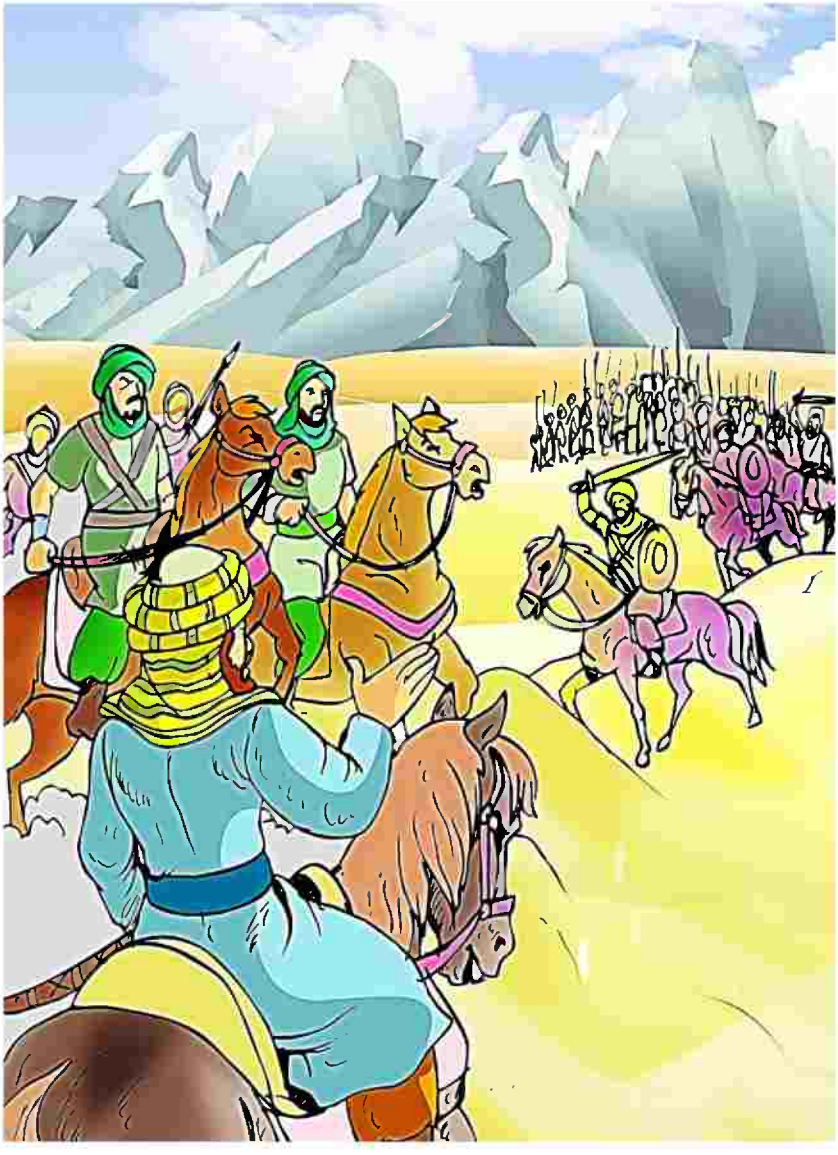

(١)

عَاشَ زَيْدٌ بْنِ حَارِثَةَ فِي كَنَفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ تَزَوَّجَ مِنَ السَّيِّدَةِ أُمِّ أيْمَنَ الحَبَشِيَّةِ، الَّتِي كَانَتْ مَمْلُوكَةً للسَّيِّدَة آمِنَةَ أُمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وقَامَتْ بِحَضَانَةِ النَّبِي بَعْدَ وَفَاةِ وَالِدَتِهِ.

أنْجَبَتْ أُمُّ أيْمَنَ غُلَامًا (اسْمُهُ أُسَامَةُ)، أحَبَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، مِثْلَمَا أحَبَّ وَالِدَهُ زَيدًا، حَتَّى أنَّهُ كَانَ يُقْعِدَهُ عَلَى إحْدَى فَخْذَيْهِ، ويُجْلِسُ حَفِيدَهُ الحَسَنَ بْنِ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةِ عَلَى فَخْذِهِ الأُخْرَى، ويُدَاعِبُهُمَا مَعًا، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا إلَى صَدْرِهِ، ويَقُولَ: "اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُمَا فأَحِبَّهُمَا" ؛ ولِذَلِكَ أطْلَقَتِ الصَّحَابَةُ عَلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ "الحِبُّ بْنِ الحِبِّ". وبرَغْمِ أنَّ أسَامَةَ كَانَ شَدِيدَ السَّوَادِ، إلَّا أنَّهُ كَانَ خَفِيفَ الظِّلِّ، شُجَاعًا، حَادَّ الذَكَّاءِ, مُتَوَاضِعًا، يَبْذُلُ أقْصَى مَا عِنْدَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ.

وبَلَغَتْ شِدَّةُ حُبِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأُسَامَةَ، أنَّهُ حِينَمَا تَعَثَّرَتْ قَدَمُهُ بعَتَبَةِ البَابِ وهُوَ طِفْلٌ، وَقَعَ عَلَى الأرْضِ،

فَشُجَّتْ جَبْهَتُه، فَأَسْرَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِ، وجَعَلَ يُزِيلُ الدَّمَ عَنْ جَبْهَتِه ويُطَيِّبُ خاطِرَهُ بِكَلِماتٍ تَفِيضُ عُذُوبَةً وحَنَانًا.

ولَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، بَلْ أَهْدَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ حُلَّةً ثَمِينَةً كَانَتْ لِمَلِكٍ سَابِقٍ، اشْتَرَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ "حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ"، ولَبِسَهَا مَرَّةً وَاحِدَةً، ثُمَّ أَهْدَاهَا إِلَىَ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ حُبًّا فِيهِ، فَكَانَ أُسَامَةُ يَرُوحُ بِهَا ويَغْدُو بَيْنَ أَتْرَابِهِ مِنْ شُبَّانِ الأَنْصَارِ والمُهَاجِرِينَ.

(٢)

حِينَمَا بَلَغَ أُسَامَةُ مَبْلَغَ الصِّبْيَانِ، تَقَدَّمَ إِلَىَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُرِيدُ الانْضِمَامَ إِلَىَ صُفُوفِ المُجَاهِدِينَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَشْفَقَ عَلَيْهِ ورَدَّهُ لِصِغَرِ سِنِّهِ، فَبَكَىَ مِنْ شِدَّةِ تَأَثُّرِهِ، ولِعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنَ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ.

ومِنْ دُرُوسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأُسَامَةَ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَىَ الحَرْقَةِ، كَانَ أُسَامَةُ فِي هَذِهِ السَّرِيَّةِ، برُغْمِ صِغَرِ سِنِّهِ، وأَثْنَاءَ القِتَالِ، تَعَقَّبَ أُسَامَةُ وأَحَدُ الأَنْصَارِ رَجُلًا مِنَ

المُشْرِكِينَ، فَلَمَّا أدْرَكَاهُ، قَالَ الرَّجُلُ: "أشْهَدُ أنَّ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ"؛ فكَفَّ الأنْصَارِيُّ عَنْ مُلَاحَقَتِهِ، لَكِنَّ أُسَامَةَ طَعَنَهُ بِرُمحٍ فَقَتَلَهُ. وعِنْدَمَا عَلِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، غَضِبَ مِنِ أُسَامَةَ غَضَبًا شَدِيدًا، وقَالَ لَهُ: يَا أُسَامَةُ أقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ؟ قَالَ أُسَامَةُ: كَانَ مُتَعَوِّذًا، لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ظَلَّ يُكَرِّرُ لَوْمَهُ وتَأْنِيبَهُ، حَتَّى تَمَنَّى أُسَامَةُ أنْ لَا يَكُونَ قَدْ أسْلَمَ بَعْدُ، لأنَّ مَا فَعَلَهُ لَيْسَ بأخْلَاقِ المُسْلِمِينَ.

ثُمَّ أعْطَى أُسَامَةُ عَهْدًا للهِ أمَامَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وقَالَ: "إنِّي أعْطِي اللهَ عَهْدًا، ألَّا أقْتُلَ رَجُلًا يقُولَ: لَا إلَه إلَّا اللهُ أبَدًا"؛ فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَعْدِي يَا أُسَامَةُ؟.. قَالَ: بَعْدُكَ.

(٣)

خَرَجَ أُسَامَةُ مَعَ وَالِدِهِ فِي غَزْوَةِ مُؤتَةِ، ولَمْ يَبْلُغَ وَقْتَهَا الثَّامِنَةَ عَشْرَةِ مِنْ عُمُرِهِ، وقَاتَلَ مَعَهُ قِتَالَ الأبْطَالِ، حَتَّى رَأى مَصْرِعَ وَالِدِهِ أمَامَ عَيْنَيْهِ، وبرُغْمِ ذَلِكَ لَمْ تَكِلَّ قُوَّتِهِ وشَرَاسَتِهِ فِي القِتَالِ، حَتَّى انْتَهَتِ المَعْرَكَةُ، ثُمَّ عَادَ إلَى المَدِينَةِ عَلَى

فَرَسِ أبِيهِ، مُحْتَسِبًا أبَاهُ شَهِيدًا عِنْدَ اللهِ.

زَادَتْهُ هَذِهِ الوَاقِعَةُ قُوَّةً وصَلَابَةً، حَتَّى جَاءَ يَوْمُ حُنَيْنٍ، اليَوْمُ الَّذِي فَرَّ فِيهِ جَيْشُ المُسْلِمِينَ مِنٍ أمَامِ العُدُوِّ، وتَرَكُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَسْطَ المَعْرَكَةِ، لَكِنَّ أُسَامَةَ ثَبُتَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، ومَعَهُ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، ولَمْ يَفِرّ كَمَا فَرَّ الكِبَارُ، ودَافَعَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ، حَتَّى تَحَوَّلَتِ الهَزِيمَةُ إلَى نَصْرٍ للمُسْلِمِينَ بفَضْلِ اللهِ وثَبَاتِهِم.

أُعْجِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بشَجَاعَةِ أُسَامَةَ، ووَلَّاهُ قَائِدًا لجَيْشِ المُسْلِمِينَ لِغَزْوِ الرُّومِ، برَغْمِ أنَّ فِي الجَيْشِ كِبَارُ الصَّحَابَةِ: "أبَو بَكْرُ, وعُمَرُ....". لَكِنْ تَأجَّلَ خُرُوجُ الجَيْشِ لمَرَضِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

وبَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، تَوَلَّى أبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ الخِلَافَةَ، وأمَرَ بخُرُوجِ الجَيْشِ إلَى الرُّومِ، حَسْبَ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَكِنَّ بَعْضًا مِنَ الصَّحَابَةِ اسْتَكْثَرُوا قِيَادَةَ الجَيْشِ عَلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَهُوَ مَازَالَ صَغِيرًا، وأرْسَلُوا عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ إلَى أبِي بَكْرٍ ليُحَدِّثَهُ فِي نَقْلِ القِيَادَةِ إلَى رَجُلٍ أكْبَرَ

سِنًّا مِنْ أُسَامَةَ؛ فغَضِبَ أبُو بَكْرٍ ﷺ وقَالَ : ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يَا بْنَ الخَطَّابِ، اسْتَعْمَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وتَأمُرُنِي أنْ أنْزِعَهُ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ ظَنَنْتُ أنَّ السِّبَاعَ تَخْطَفُنِي؛ لأنْفَذْتُ بَعْثَ أُسَامَةَ.

(٤)

خَرَجَ القَائِدُ أسَامَةُ مِنَ المَدِينَةِ بجَيْشِهِ، وخَرَجَ مَعَهُ أبُو بَكْرٍ ﷺ لِيُوَدِّعَهُ سَيْرًا عَلَى الأقْدَامِ، بَيْنَمَا أُسَامَةُ رَاكِبٌ عَلَى فَرَسِهِ، فَاسْتَحَى أُسَامَةُ مِنْ هَذَا المَوْقِفِ، وقَالَ لأبِي بَكْرٍ ﷺ : يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ، واللهِ لَتَرْكَبَنَّ أوْ لأنْزِلَنَّ. فقَالَ أبُو بَكْرٍ ﷺ : واللهِ لَا نَزَلْتَ. ثُمَّ اسْتَأْذَنَ أبُو بَكْرٍ ﷺ مِنْ أُسَامَةَ أنْ يَبْقَيَ مَعَهُ عُمَرَ فِي المَدِينَةِ لِيُعِينَهُ عَلَى أمُورِ الحُكْمِ. وبِهَذَا أعطَى أبُو بَكْرٍ ﷺ أعْظَمَ قُدْوَةٍ فِي اسْتِئْذَانِ القَائِدِ مَهْمَا كَانَ صَغِيرًا.

وانْطَلَقَ جَيْشُ أُسَامَةَ إلَى البَلْقَاءِ، وانْتَصَرَ فِي حُرُوبِه الَّتِي حَدَّدَهَا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ولَقَّنَ الرُّومَ دَرْسًا قَاسِيًّا فِي

فُنُونِ الحَرْبِ، ثُمَّ عَادَ مُنْتَصِرًا، دُونَ أدْنَىَ خَسَارةٍ، يَسْحَبُ خَلْفَهُ الأسْرَىَ، ويَحْمِلُ الكَثِيرَ مِنَ الغَنَائِمِ.

وعِنْدَمَا اشْتَدَّتِ الفِتْنَةُ بَيْنَ عَلِيٍّ ومُعَاوِيَةَ "رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا" وَقَفَ أُسَامَةُ مُحَايِدًا مَعَ حُبِّهِ الشَّدِيدِ لِعَلِيٍّ، وبَعَثَ لَهُ رِسَالَةً قَالَ فِيهَا:

"يَا أبَا الحَسَنِ إنَّكَ واللهِ لَوْ أخَذْتَ بِمَشْفَرِ الأسَدِ (فَمُهُ) لأخَذْتُ بِمَشْفَرِهِ الآخَرِ مَعَكَ حَتَّىَ نَهَلَكَ جَمِيعًا أوْ نَحْيَا جَمِيعًا، فَأمَّا هَذَا الأمْرُ الَّذِي أنْتَ فِيهِ، فَوَ اللهِ لَا أدْخُلَ فِيهِ أبَدًا"..

ولَزِمَ أُسَامَةُ دَارَهُ فَتْرَةَ النِّزَاعِ حَتَّىَ لَا يَقْتُلَ مُسْلِمًا. وكَانَ ﷺ كَثِيرَ العِبَادَةِ، مُحَافِظًا عَلَىَ صَوْمِ يَوْمِ الإثْنَيْنِ والخَمِيسِ عَلَىَ الرَّغْمِ مِنْ كِبَرِ سِنِّهِ وضَعْفِ جِسْمِهِ؛ تَأسِّيًا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، حَتَّىَ تُوُفِّيَ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أبِي سُفْيَانَ سَنَةَ (٥٤هـ)